وزارة التعليم العالي

جامعة الجزائر

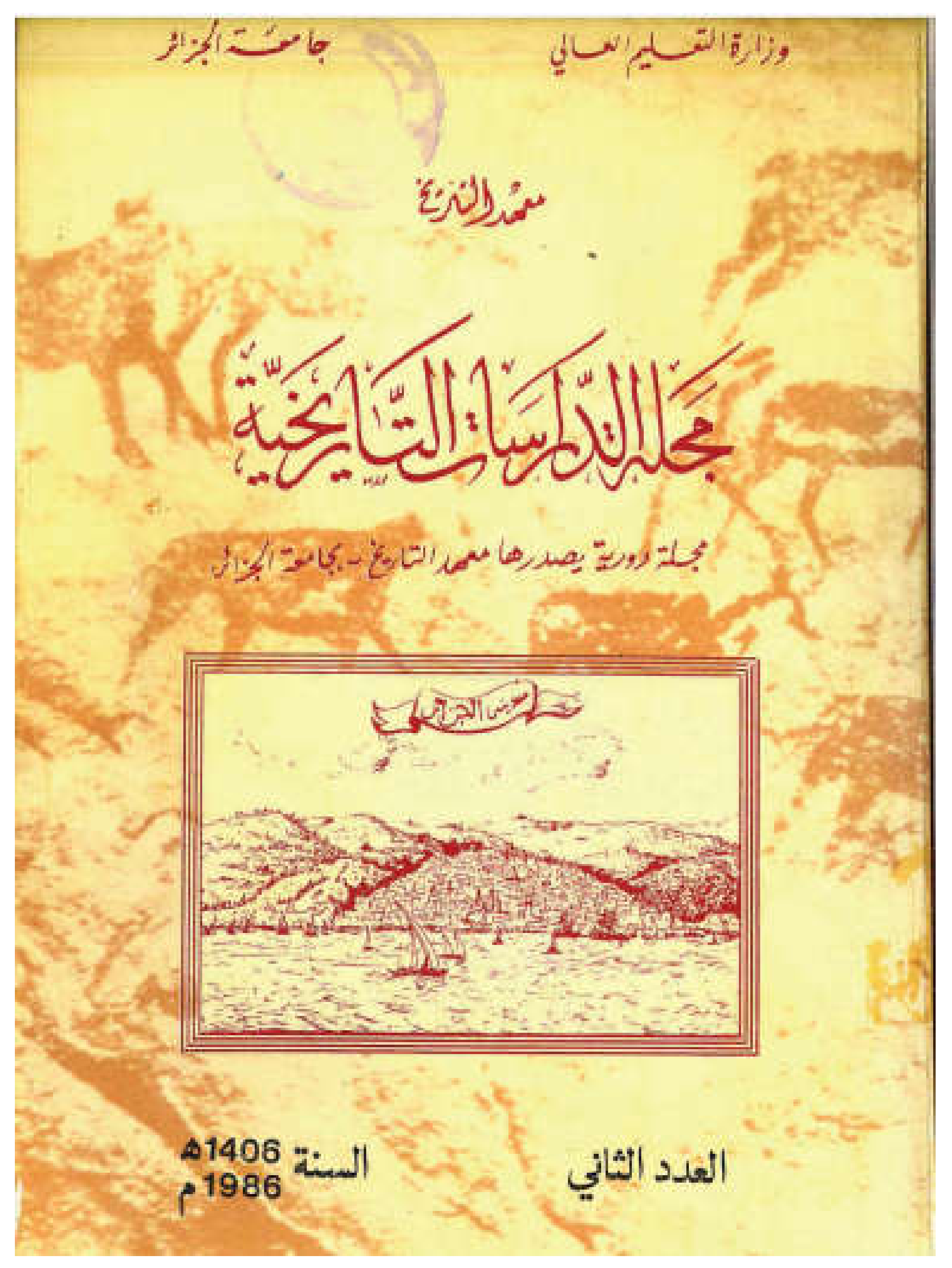
معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - بجامعة الجزائر

العدد الثاني

السنة 1406هـ
1986م



المحتويـات

أولاً : دراسات وأبحاث :

- التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة. 8
محمد البشير شنيتي
- موقف الكاهنة من الفتح الإسلامي 19
محمد بن عميرة
- الفن في مسجد قرطبة 29
مظفر عزت الشيخ قادر
- ارشاد الحيران في أمر الداي شعبان 39
مولاي بلحميسي
- العلاقات بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة الجزائرية في أوائل عهد الاحتلال 57
ناصر الدين سعيدوني
- المسائل الافريقية في السياسة الأوروبية قبيل الحرب الكبرى: اتفاق 4 نوفمبر 1901 الفرنسي ـ الالماني حول المغرب والكونغو 78
جمال قنان

ثانيا : عرض قضايا تاريخية وأطروحات جامعية:

- جانب من القضية العربية المعاصرة: البترول والأوبيك 103
مصطفى هشماوي
- الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا في أواخر العهد العثماني للطالبة فلة القشاعي المولودة موساوي 120
- دور أسرة البرامكة في التاريخ الإسلامي: في تاريخ الخلافة العباسية 125
بشار قويدر

ثالثا : تقديم مخطوطات ووثائق وبيليوغرافيا:

- دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لابي راس الناصري 134
محمد سي يوسف
- قائمة أولية بيليوغرافية التبادل التجاري لاقطار المغرب العربي في العهد العثماني «القسم الأول» 156
ناصر الدين سعيدوني
- نشاط معهد التاريخ للسنة الجامعية 1986/1985. 165

رابعا : قسم الدراسات باللغة الأجنبية

168 An Introd tion to the Origins of Algeria's African P cy
By Khirdine Hamadi

موقف الكاهنة من الفتح الاسلامي

محمد بن عميرة

تعتبر الكاهنة من أهم الشخصيات التي كان لها دور بارز في الاحداث التي عرفتها بلاد المغرب أثناء عملية الفتح الاسلامي، وقد تعرضت لها أبحاث كثيرة، لكن قلة المعلومات الواردة بشأنها في المصادر لم تسمح لاصحاب تلك الأبحاث بتغطية وتوضيح جوانب كثيرة من تاريخها.

والهدف من وراء هذا العمل هو محاولة توضيح بعض الجوانب الغامضة من هذا التاريخ اعتمادا على استنتاجات تتماشى مع المنطق بقدر الامكان، وهي طريقة تفرض نفسها طالما لم يعثر لها على بديل أي معلومات من مصادر موثوق بها.

وتتعلق الاستنتاجات الجديدة هنا باحتمال مساهمة الكاهنة في التصدي للمسلمين أثناء ولاية عقبة بن نافع الثانية وكذلك باحتمال اسلام ابنها على يد خالد بن يزيد القيسي قبل المعركة بينها وبين حسان بن النعمان، بالإضافة الى التوقف أمام بعض المسائل كقضية تبني الكاهنة لخالد بن يزيد. لكن علينا قبل كل شيء أن نتعرف عن هذه الشخصية الغامضة بقدر الإمكان.

– من هي الكاهنة؟

هي داهيا بنت تابتة (أو ثابتة أو ماتية أو تيقان)، سميت الكاهنة لما كانت تخبر به قومها بأشياء من الغيب، وليس هناك ما يؤيد تاريخيا قول قوتيه Gautier «ان الكاهنة معناها ساحرة وعرّافة باللغة العبرية وربما بالبونيقية وليس بالعربية»[1]، بل

ليس هناك ما يمنع منطقيا ان يكون العرب هم الذين أطلقوا عليها هذه التسمية، ولا شك ان اجتهاد فورنيي هنا كعادته يهدف الى محو أي أثر عربي مهما كان تافها من تاريخ المغرب خدمة لسياسة بلده آنذاك المبنية على مبدأ «فرق تسد».

ولا يعرف عنها قبل الفتح الاسلامي وأثناءه سوى أنها كانت تحكم قبيلة جراوة البترية بجبل أوراس. وقد عاشت مائة وسبعا وعشرين سنة، قضت منها خمسا وستين في الحكم، الذي توصلت إليه على حساب أبنائها الثلاثة، الذين ورثوا الحكم عن سلفهم، اذ سيطرت عليهم أولا، ثم سيطرت على قومها بهم، ونجحت في إنجاز مهمتها تلك بفضل «ما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيبة أحوالهم وعواقب أمورهم».

وتذكر بعض المصادر أن جراوة قد تهوّدت قبل الاسلام لكن الباحثين في تاريخ المغرب لم يقتنعوا بذلك وراح بعضهم يشك في الأمر بينما راح البعض الآخر ينفيه تماما، وسيبقى المشكل مطروحا طالما لم يعثر على دليل قاطع يؤيده أو ينفيه.

فيما يخص تاريخ الكاهنة السياسي والعسكري يتطلب البحث فيه العودة الى ولاية عقبة الثانية[١] التي توغل أثناءها في بلاد المغرب متبعا طريق باغاية فالمسن أو بليش فمدينة أذنة، حيث مرّ بوادي السهر الذي يبعد عنها بثلاثة أميال ومن ثم اتجه الى تيهرت فجبال درن (أي جبال المصامدة)، ومنها الى طنجة فالسّوس الأدنى وبعدها السوس الأقصى ثم قفل راجعا.

وفي حديثه عن هذا التوغل ذكر ابن عبد الحكم ان ابن الكاهنة البربري خرج «على أثر عقبة كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى السوس ولا يشعر بما صنع البربري، فلما انتهى عقبة الى البحر أقحم فرسه حتى بلغ نحره... وانصرف راجعا والمياه قد غورت وتعاونت عليه البربر...»[٢]. ويضيف نفس المصدر أنه بعد قتل عقبة سنة 63 هـ / 682 م «زحف ابن الكاهنة الى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس (وكان عقبة قد استخلفهما على القيروان قبل خروجه الى السوس الأقصى) فقتلاه قتالا شديدا فانهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه، وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس الى مصر بالجيش لاجتماع ملأ البربر وأقام ضعفاء أصحابها ومن كان خرج معها من موالي افريقية بأطرابلس»[٣].

ومن المتفق عليه تاريخيا ان الذي قتل عقبة هو كسيلة[٤] أمير قبيلة أوربة البرنسية، وهو الذي استفاد من هذه العملية حيث بقي أميرا على القيروان مدة خمس سنين، وهي المدة التي انشغلت فيها الخلافة عن المغرب، بما كانت تعانيه من المشاكل التي تسبب فيها موت الخليفة يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان بن الحكم بمرج راهط فيما كان يعرف بحروب آل الزبير[٥].

ويلاحظ هنا أن المصادر لا تذكر شيئا من شأنه ان يلقي الضوء على أوضاع المغرب المختلفة آنذاك ومن ثم لا يبقى أمام من يريد أن يتعرف عليها سوى باب الاستنتاجات، وفيما يخص الدور الذي تكون الكاهنة قد لعبته الى جانب كسيلة آنذاك لا نجد سوى الأخبار التي انفرد بها ابن عبد الحكم عن «ابن الكاهنة» في حين أنه لم يتحدث عن دور كسيلة ومن ثم يمكن وضع افتراضات منها:

أن يكون ابن عبد الحكم أطلق اسم ابن الكاهنة على كسيلة، إمّا خطأً، أو عن قصد، في حالة ما إذا كان كسيلة يسمى ابن الكاهنة وهذا لا يستبعد، خاصة اذا ما تأكدت صحة العلومات التي بلغت حسّانا عنها فيما بعد، من أنها تمثل أكبر قوة تُشكّل خطرا على المسلمين، يخافها جميع الروم ويطيعها كل البربر، فمن باب الطاعة اذن يكون كسيلة قد تلقب «بابن الكاهنة» وَلِمَ لا؟ وخاصة اذا كان مثل هذا اللقب يجلب لصاحبه فوائد، وفي هذه الحالة قد لا تكون الكاهنة لعبت أيّ دور في الأحداث التي وقعت بين عقبة وكسيلة أو كان لها دور ثانوي جدا لدرجة لم يلفت نظر المؤرخين فلم يسجلوا شيئا عنه

وقد يكون ابن الكاهنة لعب فعلا دورا في تلك الأحداث، إما كطرف مستقل أو كحليف لكسيلة، ويؤيد هذا الافتراض ما أورده ابن خلدون عن لكاهنة في قوله «وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط، قبلة الأوراس، بإغرائها برابرة تهودا عليه»[٦]. فما دامت تغري وتحرض على الحرب يمكن جدا أن تكون قد أرسلت جيشا للمساهمة في القتال وعلى رأس هذا الجيش أحد أبنائها، ونفس المصدر يذكر مرة أخرى أن «الكاهنة لها بنون ثلاثة»[٧]، سيطرت بهم على قومها، وعند حديثه عن هزيمة حسان لها، لم يختلف مع غيره من المؤرخين في قولهم انه كان لها «ابنان قد لحقا بحسان»[٨] دون أن يتحدث عن مصير الابن الثالث، فلعله قتل اذن في المعركة التي خاضها ضد زهير بن قيس وعمر بن علي بالقيروان. المهم أن أخباره انقطعت بعد ذلك ولم يبدأ الحديث عن أمه إلا في ولاية حسان بن النعمان.

ليس هناك ما يمنع منطقيا ان يكون العرب هم الذين أطلقوا عليها هذه التسمية، ولا شك ان اجتهاد قوتيي هنا كعادته يهدف الى محو أي أثر عربي مهما كان تافها من تاريخ المغرب خدمة لسياسة بلده آنذاك المبنية على مبدأ «فرق تسد».

ولا يعرف عنها قبل الفتح الاسلامي وأثناءه سوى أنها كانت تحكم قبيلة جراوة البترية بجبل أوراس. وقد عاشت مائة وسبعا وعشرين سنة، قضت منها خمسا وستين في الحكم، الذي توصلت إليه على حساب أبنائها الثلاثة، الذين ورثوا الحكم عن سلفهم، اذ سيطرت عليهم أولا، ثم سيطرت على قومها بهم، ونجحت في إنجاز مهمتها تلك بفضل «ما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيبة أحوالهم وعواقب أمورهم».

وتذكر بعض المصادر أن جراوة قد تهوّدت قبل الاسلام لكن الباحثين في تاريخ المغرب لم يقتنعوا بذلك وراح بعضهم يشك في الأمر بينما راح البعض الآخر ينفيه تماما، وسيبقى المشكل مطروحا طالما لم يعثر على دليل قاطع يؤيده أو ينفيه.

فيما يخص تاريخ الكاهنة السياسي والعسكري يتطلب البحث فيه العودة الى ولاية عقبة الثانية[2] التي توغل أثناءها في بلاد المغرب متبعا طريق باغاية فالمسن أو بليش فمدينة أذنة، حيث مرّ بوادي السهر الذي يبعد عنها بثلاثة أميال ومن ثم اتجه الى تيهرت فجبال درن (أي جبال المصامدة)، ومنها الى طنجة فالسّوس الأدنى وبعدها السوس الأقصى ثم قفل راجعا.

وفي حديثه عن هذا التوغل ذكر ابن عبد الحكم ان ابن الكاهنة البربري خرج «على أثر عقبة كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى السوس ولا يشعر بما صنع البربري، فلما انتهى عقبة الى البحر أقحم فرسه حتى بلغ نحره... وانصرف راجعا والمياه قد غورت وتعاونت عليه البربر...»[3]. ويضيف نفس المصدر أنه بعد قتل عقبة سنة 63 هـ / 682 م «زحف ابن الكاهنة الى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس (وكان عقبة قد استخلفهما على القيروان قبل خروجه الى السوس الأقصى) فقتلاه قتالا شديدا فانهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه، وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس الى مصر بالجيش لاجتماع ملأ البربر وأقام ضعفاء أصحابها ومن كان خرج معها من موالي افريقية بأطرابلس»[4].

ومن المتفق عليه تاريخيا ان الذي قتل عقبة هو كسيلة[5] أمير قبيلة أوربة

البرنسية، وهو الذي استفاد من هذه العملية حيث بقي أميرا على القيروان مدة خمس سنين، وهي المدة التي انشغلت فيها الخلافة عن المغرب، بما كانت تعانيه من المشاكل التي تسبب فيها موت الخليفة يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان بن الحكم بمرج راهط فيما كان يعرف بحروب آل الزبير[6].

ويلاحظ هنا أن المصادر لا تذكر شيئا من شأنه ان يلقي الضوء على أوضاع المغرب المختلفة آنذاك ومن ثم لا يبقى أمام من يريد أن يتعرف عليها سوى باب الاستنتاجات، وفيما يخص الدور الذي تكون الكاهنة قد لعبته الى جانب كسيلة آنذاك لا نجد سوى الأخبار التي انفرد بها ابن عبد الحكم عن «ابن الكاهنة» في حين أنه لم يتحدث عن دور كسيلة ومن ثم يمكن وضع افتراضات منها:

أن يكون ابن عبد الحكم أطلق اسم ابن الكاهنة على كسيلة، إمّا خطأ، أو عن قصد، في حالة ما إذا كان كسيلة يسمى ابن الكاهنة وهذا لا يستبعد، خاصة اذا ما تأكدت صحة المعلومات التي بلغت حسّانا عنها فيما بعد، من أنها تمثل أكبر قوة تُشكّل خطرا على المسلمين، يخافها جميع الروم ويطيعها كل البربر، فمن باب الطاعة اذن يكون كسيلة قد تلقب «بابن الكاهنة» وَلِمَ لا؟ وخاصة اذا كان مثل هذا اللقب يجلب لصاحبه فوائد، وفي هذه الحالة قد لا تكون الكاهنة لعبت أيّ دور في الأحداث التي وقعت بين عقبة وكسيلة أو كان لها دور ثانوي جدا لدرجة لم يلفت نظر المؤرخين فلم يسجلوا شيئا عنه

وقد يكون ابن الكاهنة لعب فعلا دورا في تلك الأحداث، إما كطرف مستقل أو كحليف لكسيلة، ويؤيد هذا الافتراض ما أورده ابن خلدون عن لكاهنة في قوله «وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط، قبلة الأوراس، بإغرائها برابرة تهودا عليه»[7]. فما دامت تغري وتحرض على الحرب يمكن جدا أن تكون قد أرسلت جيشا للمساهمة في القتال وعلى رأس هذا الجيش أحد أبنائها، ونفس المصدر يذكر مرة أخرى أن «الكاهنة لها بنون ثلاثة»[8]، سيطرت بهم على قومها، وعند حديثه عن هزيمة حسان لها، لم يختلف مع غيره من المؤرخين في قولهم انه كان لها «ابنان قد لحقا بحسان»[9] دون أن يتحدث عن مصير الابن الثالث، فلعله قتل اذن في المعركة التي خاضها ضد زهير بن قيس وعمر بن علي بالقيروان. المهم أن أخباره انقطعت بعد ذلك ولم يبدأ الحديث عن أمه إلا في ولاية حسان بن النعمان.

ويظهر ان جراوة قد استقطبت قبائل افريقية، وخاصة البتر منها، بعد قتل كسيلة في معركة سهل ممس على يد زهير بن قيس البلوي الذي غادر افريقية بعد ذلك الى برقة حيث استشهد مع بعض أصحابه في معركة ضد الاغريق (أي البيزنطيين) الذين قاموا بغارة على سواحلها، وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان منشغلا بحروبه مع عبد الله بن الزبير، فلم يهتم بشؤون المغرب الا بعد ست سنوات.

حينئذ ، أي في الفترة الواقعة ما بين سنة 68 و 79 هـ / 687_699 م، أرسل الخليفة حسانا بن النعمان الغساني، على رأس جيش مصر، ثم بعث يأمره بالتوجه الى المغرب، وأطلق يده في أموال مصر يعطي منها ما يشاء لمن يرد عليه من الناس، وبهذه الكيفية تمكن من تجنيد أربعين ألف مقاتل، سار بهم في اتجاه الغرب، ولما وصل الى طرابلس انضم اليه المسلمون الذين سبق لهم أن غادروا افريقية مع زهير بن قيس، وواصل طريقه الى القيروان ومنها زحف على قرطاجة فحاصرها وهدمها وطهّر نواحيها من الروم الذين لجأوا الى بونة وإلى باجة.

بذلك تمكن حسان من القضاء نهائيا على سلطة البيزنطيين في بلاد المغرب، لان المسلمين قبله، كانوا قد ركزوا جهودهم على الجزء الجنوبي من افريقية، ذلك الجزء الذي استقل به جرجير عشية فتح المغرب، وجعل من سبيطلة (تقع على بعد 200 كلم جنوب غرب مدينة تونس) عاصمة له، أما الجزء الشمالي ، من افريقية، الذي كان يحكمه ممثل للامبراطورية «Legat»، وعاصمته قرطاجة فان فتحه لم يتم الا على يد حسان.

بعدئذ راح القائد العربي يستفسر عمّا اذا كانت هناك قوة أخرى تشكل خطرا على المسلمين فأُخبر أن هناك امرأة يقال لها الكاهنة ، بجبل أوراس ، يطيعها كل البربر ويخافها كل الروم في افريقية، وهي تمثل أهم قوة باقية بالمغرب، وكانت تلك المعلومات كافية لحسان كي ينطلق نحوها مارا بمرماجنة، وكانت قلعة لم تفتح بعد، وتحصن الروم بها آنذاك ، فمضى وتركهم، مما يدل، ولا شك على انه كان يريد أن يسرع في سيره حتى يفاجئ الكاهنة أو انه كان يريد أن يحافظ على كامل نشاط جيشه لخوض غمار المعركة الحاسمة في عملية فتح المغرب، واذا صح أحد هذين الافتراضين أو كلاهما، فهو دليل على ان حسّانا كان يقدر أهمية الخصم.

لم تبق الكاهنة مكتوفة الأيدي ، عندما علمت بتقدمه اليها، بل تحركت هي الأخرى وقصدت مدينة باغاية، الواقعة على الجانب الشرقي من جبل أوراس فأخرجت من بها من الروم وهدمتها، خوفا من أن يتحصن بها المسلمون، ثم واصلت طريقها الى نهر اختلف المؤرخون في تسميته وان كانت غالبيتهم تطلق عليه تسمية مسكيانة (يسمى أيضا نهر البلاء ووادي العذارى وواد نيني) فنزلت على هذا النهر، وكان حسان قد سبقها اليه، وقضى الطرفان ليلتهم على سروجهم، استعدادا لمواجهة أي احتمال.

في الصباح نشب القتال، وكان النصر حليف الكاهنة التي لاحقت المسلمين الى أن أخرجتهم من عمل قابس، ومن هناك عادت الى مقرها بالأوراس، وكانت قد أسرت ثمانين جنديا أحسنت اليهم وأطلقت سراحهم جميعا، فالتحقوا بقائدهم، الا واحدا، هو خالد بن يزيد القيسي أو العبسي، فقد أعجبت به كما يبدو ذلك من قولها له، حسب ما ورد في كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي «ما رأيت من الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدي»، ثم أخذت قليلا من دقيق الشعير بزيت ووضعته على ثديها واطعمت منه خالدا وولديها، وكان اسم احدهما قويدر والآخر يمين[١٥]، وهما اسمان عربيان لا شك، حتى ولو صح ما ذكره ابن عذارى من أن أحدهما من أب يوناني والثاني من أب بربري[١٦].

ويلاحظ هنا أن الفكرة التي طرحها الرائد كوفي«Gauvet» فيما يتعلق بالتجاء الكاهنة الى حيلة التبني هذه كي تخفي وراءها فكرة اتخاذه خليلا لها وكي تنجو من انتقادات قومها، لا تقوم على أي أساس تاريخي ولا نجد لها أثرا، ما عدا اعجابها به، وهذا ليس دليلا كافيا يسمح باستنتاج مثل هذا الرأي، خاصة اذا سلمنا بقول ابن خلدون من ان سنها كان آنذاك يتجاوز مائة وعشرين سنة، وأغلب الظن أن كبر سنها هذا هو الذي عاقها عن الزواج ولا نرى كيف يسمح لها باتخاذ الخلان.

وقد بقيت الكاهنة بعد انتصارها تحكم بلاد المغرب مدة خمس سنوات «نفت خلالها العرب منها» ووجهت جنودها الى كل ناحية، فقطعوا الأشجار وهدموا الحصون وخربوا المدن ونهبوا الأموال حتى لا يبقى، في نظرها، ما يجذب العرب اليها، من مدن وذهب وفضة، وكانت هذه السياسة «سياسة الأرض المحروقة» معروفة في

القديم، غير أن المؤرخين بالغوا ، بكل تأكيد، في وصفهم للبلاد على أنها «كانت ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة، وقرى متصلة ومدائن منتظمة» ثم لم يبق من هذا كله أي أثر، لكن ما تم من التخريب كان كافيا لاثارة الرأي العام وجلب سخط السكان على رئيستهم وجنودها لدرجة أن الكثير منهم هاجروا من البلاد الى الاندلس والى جزر البحر الأبيض المتوسط [12] ، كما انضم الكثير ، ممن لم يهاجر، الى حسان عندما عاود الكرة عليها سنة 74 هـ / 673ـ674 م.

وكان حسان بعد هزيمة مسكيانة، قد انسحب بالمسلمين من افريقية، ولما خرج من قابس بعث يخبر الخليفة عبد الملك بن مروان بما جرى، فرد عليه بأن يقف حيثما وافاه الجواب، فورد عليه في عمل برقة، فأقام بها ينتظر مدة خمس سنوات.

وقد استغل حسان فرصة وجود خالد بن يزيد مع الكاهنة، فاتصل به سرا يطلب منه تزويده بمعلومات عنها، وتمت بينهما مراسلات، في هذا الشأن، زوّد بها خالد قائده بما يحتاجه ثم تلقى هذا الأخير امدادات وأمر بالزحف على العدو، من الخليفة عبد الملك الذي التفت الى المغرب من جديد، بعد قضائه على الثورات التي كانت قائمة ببلاد الحجاز والعراق، فسار صوب جبل أوراس، ولما وصل مدينة قابس «لقيه أهلها بالأموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء» [13] ثم قصد قفصة ليختصر الطريق فأطلعه من بها واستولى على قسطيلية ونفزاوة أيضا.

وما أن علمت الكاهنة بتقدم جيش المسلمين اليها حتى تحركت من جبلها، مثل المرة الأولى، للقائه، وحسب ابن عبد الحكم فقد أحضرت خالدا وطلبت منه أن ينطلق بابنيها الى قائد المسلمين ليأخذ لها الأمان، ففعل خالد وبقيت هي وجنودها الى أن اصطدموا بالمسلمين في معركة حاسمة انتهت بهزيمة جيشها وقتلها [14] . وقد قتلت بمكان يسمى «بئر الكاهنة».

ومن يتأمل كلام ابن عبد الحكم هنا يجد أنه لا يتماشى مع المنطق السليم، اذ أنه من الصعب أن يقتنع الانسان بتصرف كهذا يصدر عن قائد أو رئيس يرضى لابنيه ما لا يرضاه لنفسه ولجيشه، اللهم الا اذا كان مجنونا أو درويشا ، حتى ولو كان الأمر كذلك فان مثل هذا التصرف من شأنه أن يجلب اليه سخط جنوده ورجال دولته وبالتالي تخليهم عنه، ويقتضي المنطق هنا أن يكون التفكير بالطريقة التالية :

في حالة ما اذا كان القائد أو الرئيس مجنونا أو درويشا فانه لا يفكر في خطورة النتائج التي يمكن أن تنجم عنها تصرفاته ومن ثم فانه لا يفكر في اخفائها وفي هذه الحالة ستنخفض الروح المعنوية لمقاتليه وتضطرب أحوال دولته لدرجة لا تسمح له بجمع جيش يمكنه أن يعتمد عليه في التصدي لأعدائه.

وفي حالة ما اذا كان الرئيس أو القائد سليم العقل، فاما ان يكون أمله قويا في الانتصار، وفي هذه الحالة يقدم على خوض غمار المعركة بكل امكانياته ويمكنه أن يفكر في أن يجنب ابناءه خطر التعرض للموت بأية طريقة دون أن يرمي بهم في أحضان العدو، لانه في هذه الحالة يفقدهم أيضا بالإضافة الى الدعاية السيئة التي ستشوه سمعته وسمعة عائلته وسمعة شعبه فيما بعد.

أما اذا كان أمله في الانتصار ضئيلا، أو رأى أن هزيمته محققة، فانه في هذه الحالة يجب عليه أن يبحث عن مخرج لكل رعاياه بمن فيهم الجيش والأبناء، يفاوض بالجميع أو يخوض غمار الحرب بالجميع أو يستسلم بالجميع، دون أي تمييز لانه في حالة ما اذا ميز أبناءه عن جيشه فمعنى ذلك أنه اناني بل خائن ليس في مستوى الثقة التي وضعها فيه شعبه ولا يستحق منصب القيادة.

بناء على كل هذا يمكن القول ان الكاهنة ، لو صح أنها تصرفت مثلما ذكره ابن عبد الحكم فانه لا يمكن تبرئتها من أحد أمرين هما الجنون والدروشة أو الخيانة ، وبما أنه يصعب على المرء أن يقتنع بهذا لأنه لا يمكن لقوم مهما بلغت درجة رقيهم الحضاري أن ينقادوا لدرويش أو مجنون أو خائن، من هنا يصبح من الضروري تصور رسم خط آخر لسير الأحداث يختلف عما ذكره ابن عبد الحكم لكنه يتفق مع المنطق.

ويعتمد رسم هذا الخط على العلاقة التي تكون قد نشأت بين خالد وبين ابني الكاهنة فلا شك أن عملية التآخي التي ربطتهم بها الأم، مهما كان التزام كل طرف بها، قد أدت الى تقاربها لدرجة تمكن الواحد من فهم الآخر، خاصة وان مدة خمس سنوات كانت، ولا بد، كافية لذلك ومن ثم لا يستبعد أن يكون خالد قد أثر في ابني الكاهنة، عندما شرح لهما الدين الإسلامي فأسلما على يديه وأخفيا ذلك على قومهما لتجنب ما يمكن أن ينجم عن ذلك من مشاكل.

وإذا صح هذا الافتراض فان ابني الكاهنة يكونان قد التجآ إلى حسان مع

خالد من تلقاء أنفسهما ودون علم من أمهما، وهذا ما يفسر ثقة قائد المسلمين فيهما، بعد هزيمة قومهما، عندما أسند لكل منهما قيادة ستة آلاف من قومهما، وضمهما الى جيشه، ثم واصل فتح بلاد المغرب[14].

وهناك افتراض آخر يقضي بأن ابني الكاهنة لم يلجآ الى حسان الا بعد انهزام قومهما، وفي هذه الحالة يمكن أن تكون أمهما هي التي أرسلتهما معه ليأخذ لهما الأمان، بعد تفرق جيشها عنها، وفقدان كل أمل لها في الانتصار وفضلت هي عدم اتباعهما الى أن قتلت أو ماتت (لان ذلك تم في ظروف غامضة) حتى لا يقال أن ملكة البربر استسلمت وتتفادى ما يمكن أن ينجم عن ذلك من عار على قومها.

وأخيرا يمكن أن يكون ابنا الكاهنة قد لجآ الى حسان بعد الهزيمة وربما بعد قتل أو موت أمهما وبعد أن تبين لهما أن لا أمل في تحقيق أي انتصار على المسلمين فاقترحا على خالد أو اقترح عليهما أن يأخذ لهما الأمان من حسان.

المهم أن هذين الابنين وجدا كل ترحيب وتقدير من القائد العربي ، وكانت ثقته فيهما كبيرة لدرجة أنه أمّن قومهما «ومن انضوى اليهم من جبل أوراس»[15] ، على شرط أن يعطوه اثني عشر ألفا منهم يضمهم الى جيشه ليستكمل بهم فتح المغرب، فوافقوا وأسلموا على يديه، فجعل كل واحد من ابني الكاهنة على ستة آلاف منهم، وضمهم الى صفوف جيشه وراح يستكمل فتح البلاد[17] ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على اعجاب حسان بهؤلاء القوم الذين استطاعوا أن يلحقوا أول هزيمة من نوعها بالمسلمين في المغرب.

ولم يسجل المؤرخون، بعد ذلك، شيئا عن أخبار هذا الجيش الجديد، مما يدل، ولا شك، على اندماجه مع الجيش الاسلامي، وعلى أن ثقة حسان فيه كانت في محلها.

ولما أتى موسى بن نصير، الذي استخلف حسان على ولاية المغرب[18] وفتح البلاد عيّن مولاه طارقا بن زياد على طنجة وما والاها وترك معه جيشا اختلف المؤرخون في تقدير عدده لكن معظمهم يتفق على أن البربر فيه كانوا اثني عشر ألفا[19] ، وحسب الرقيق القيرواني فان هؤلاء «يمثلون العدة التي جعلها عليهم (على البربر) حسان بن النعمان»[20] ، فإذا صح ذلك فان قوم الكاهنة اي جراوة هم الذين كان لهم شرف فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد سنة 92 هـ / 711 م.

وخلاصة القول أن قبيلة جراوة التي كانت أقوى من تصدت للمسلمين أثناء فتحهم لبلاد المغرب وأول قوة الحقت بهم أول هزيمة من نوعها هناك بزعامة الكاهنة، كانت أيضا أكبر قوة ساندتهم في مواصلة عملية الفتح بزعامة ابني الكاهنة، كما أخذت على عاتقها مهمة فتح بلاد الاندلس بقيادة طارق بن زياد، ولا يبرر هذا التحول في موقفها من معارض الى مؤيد سوى اعتناقها للاسلام حيث أصبحت تعتبره دينها وتعمل على نشره كما يقتضيها الواجب.

الهوامش

(1) E. F. Gautier, Les Siècles obscurs du Maghreb, p. 245.

(2) ابن خلدون العبر، ط. دوسلان، 11/2.

(3) كانت ولايته الأولى سنة 46 هـ / 666_667 م، وهي الحملة التي أسس فيها مدينة القيروان، ثم عزله والي مصر، مسلمة بن مخلد الانصاري سنة 51 هـ / 671_672 م، وعين مكانه أبا المهاجر دينار، لكن الخليفة معاوية سرعان ما ردّ عقبة على ولاية افريقية (انظر يحيى هويدي، تاريخ فلسفة الاسلام، 35/1)، أو ان الخليفة يزيد بن معاوية هو الذي رده سنة 65 ه (الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان).

(4) فتوح افريقية والأندلس، ص 59_60، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964.

(5) المصدر نفسه.

(6) البكري، المغرب في ذكر افريقية والمغرب، ص 74. انظر موسى لقبال، المغرب الاسلامي، ص 53_54،

Ch. A. Julien, L'histoire de l'Afrique du Nord, t. 2, pp. 175 54.

(7) السلاوي، الاستقصاء، 39/1.

(8) العبر، 10/2 (ط دوسلان).

(9) نفسه، ص 11. (10) نفسه.

(11) الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 58.

(12) البيان المغرب، 37/1.

(13) نفسه، 36/1_37.

(14) ابن الأثير، الكامل، 32/4.

Conquête de l'Afrique, p. 341. En-Nouweiri.

(15) فتوح، ص 64.

(16) المالكي، رياض النفوس، ص 36، ابن الأثير، الكامل، 32/4. ابن عذارى، البيان، 38/1.

(17) ابن خلدون، العبر، 11/2 (ط. دوسلان).

(18) المالكي، رياض النفوس، ص 36. ابن الأثير، الكامل، 32/4. ابن عذارى، البيان، 38/1.

(19) تختلف المصادر في تحديد تاريخ هذا التغيير في الفترة التي تتراوح ما بين 77 هـ و 96 هـ / 696ـ715 م.

(20) ابن عذارى، البيان، 49/1. ابن خلدون، العبر، 220/6 (ط. بيروت). الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 69.